مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية

اسم المقال: "علم الاستغراب" ضرورات التأسيس لمواجهة الخطاب الاستشراقي، وصراع الحضارات
اسم الكاتب: د. فراس فرزت القطان
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/10464
تاريخ الاسترداد: 2026/11/22 16:44 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 149 (2): 295-312

Damascus university journal of Historical Studies
V 149 (2):295-312

"عِلم الاستغراب"
ضرورات التأسيس لمواجهة الخطاب الاستشراقي، وصراع الحضارات

د. فراس فرزت القطان

قسم الدراسات السياسية– كلية العلوم السياسية– جامعة دمشق

feras79.katta@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

يتناول البحث موضوع "الاستغراب"، ومفهومه الذي يعني "عِلم" دراسة الغرب من قبل مفكري الشرق، معرّجاً قبل ذلك على مفهوم الاستشراق وأهدافه، وأهم النظريات العنصرية التي استند عليها الخطاب السياسي الغربي خلال مراحل مختلفة بهدف إذكاء الصراع بين الحضارات، وتأجيج الحروب بين دولها وشعوبها.

وبناءً على ذلك تعالج هذه الدراسة واقع "الاستغراب" في الفكر المعاصر، مبيِّنةً ضرورة تأسيسه كعلم، مبرزة أهدافه وغاياته المنشودة، وأهميته في مواجهة صراع الحضارات والخطاب الاستشراقي ذي التوجه العنصري الاستعماري، مسلِّطةً الضوء على أهم الصعوبات التي ما تزال تحول دون تأسيس "عِلم" الاستغراب، وأبرز العقبات التي تقف في طريق "المستغربين"، وصولاً إلى تقديم بعض التصورات والمقترحات التي قد تذلل شيئاً من تلك المشكلات، في سبيل تكوين النواة الأولى لهذا العِلم.

الكلمات المفتاحية: الاستغراب، الاستشراق، صراع الحضارات

تاريخ الايداع: **2024/9/6**
تاريخ النشر: **2024/10/31**

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

"Occidental Science"
Necessities to confront orientalist discourse and the clash of civilizations

Dr. Feras Farzat Alkattan

Department of Political Studies - Faculty of Political Sciences - Damascus University

feras79.katta@damascusuniversity.edu.sy

Abstract:

The research deals with the topic of "Occidentalism" and its concept, which means "the science" of studying the West by Eastern thinkers. Before that, it touched upon the concept of Orientalism and its goals, and the most important racist theories on which Western political discourse was based during various stages with the aim of fueling conflict between civilizations and fueling wars between their countries. And its peoples.

Accordingly, this study addresses the reality of "Occidentalism" in contemporary thought, demonstrating the necessity of establishing it as a science, highlighting its desired goals and objectives, and its importance in confronting the clash of civilizations and Orientalist discourse with a racist, colonialist orientation, highlighting the most important difficulties that still prevent the establishment of a "science." Occidentalism, and the most prominent obstacles that stand in the way of the "Westernized", leading to presenting some perceptions and proposals that may overcome some of these problems, in order to form the first nucleus of this science.

Key words: Occidentalism, Orientalism, Clash of Civilizations.

Received: **6/9/2024**
Accepted: **31/10/2024**

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a **CC BY- NC-SA**

مقدمة:

يُعدُّ الاستشراق أسلوباً غربيَّاً يهدف إلى دراسة وفهم الشرق، إلا أن هذا الفهم تم توجيهه من قبل المستشرقين وفق وجهتين متباينتين، إحداهما لعبت دوراً كبيراً في تزييف الحقائق من أجل السيطرة على دول وشعوب الشرق واستعمارها.

أما الوجهة الأخرى، فقد كانت موضوعية نسبياً في دراساتها عن الشرق، وأوضح البعض من هؤلاء المستشرقين أهمية الدور الحضاري القديم للعرب والمسلمين.

ولمواجهة الآثار السلبية للاستشراق ذي الوجهة الاستعمارية، ومخاطر ظاهرة صراع الحضارات المرتبطة به، وبهدف الوصول إلى تحقيق حوار متكافئ بين الثقافات، تأتي أهمية تأسيس "عِلم الاستغراب" الذي يعني طلب معرفة الغرب ودراسة (لغاته وآدابه وعلومه وفنونه واقتصاده وتاريخه وفلسفاته وعاداته وثقافاته...) من قبل مفكّري الشرق، وضرورة استكمال أدواتِه ومناهجه العلمية كي يصبح علماً قائماً بحد ذاته يستطيع تحقيق أهدافه.

وبالرغم من أن هذا الحقل المعرفي لم يصل بعد إلى مستوى "عِلم" إلا أنه كثيراً ما يتم استخدام مصطلح "عِلم" الاستغراب من قبل كثير من الباحثين في هذا المجال بعد وضع كلمة "عِلم" بين قوسين، إذ ربما أمكن اعتبار تلك الجهود التي بُذلَت منذ بداية تسعينيات القرن العشرين في هذا المضمار إنجازات أثمرت إرهاصات علمٍ لموضوع الاستغراب.

أهمية البحث:

تتضح أهمية البحث من خلال تسليط الضوء على ظاهرة الاستغراب كعِلم لم يزل في إطاره النظري، يبحث عن دعائم وأسس لتشكيل بنائه المتماسك، كي يبصر النور في الواقع العملي، لِما له من أهمية كبيرة يمكن التعويل عليها في دفع عجلة التقدم والتطور لدى مجتمعات الشرق على صعد متعددة، منها إدراك الذات الحضارية لدى شعوب الشرق، ومعرفة "الآخَر" معرفة علمية تمكّن مجتمعات الشرق من امتلاك الأدوات اللازمة لمواجهة التحديات والقيود التي يفرضها الغرب عليها.

مشكلة البحث وأسئلته:

تكمن مشكلة البحث في تبيان الدور المعوَّل على تأسيس "عِلم" الاستغراب في مواجهة الخطاب الاستشراقي العنصري، وما يفرزه هذا الخطاب من سلبيات على بلدان وشعوب الشرق، وعلى رأسها تمهيد الطريق للغزو الغربي لدول الشرق بكل أشكاله وأساليبه.

ومن ثم فإن البحث يحاول الإجابة على التساؤلات التالية:

1- ما هي الغاية المنشودة من تأسيس "عِلم" الاستغراب؟

2- ما هي درجة التأثير التي يمكن أن يلعبها "عِلم" الاستغراب في التصدي لظاهرة الاستشراق وصراع الحضارات؟

3- هل خطا الاستغراب خطوات حقيقية في طريق تشكُّله كعِلم، أم أنه ما زال في إرهاصاته الأولى؟

4- ما هو الدور الواجب على دول الشرق شعوباً ومثقفين وأنظمة كي يتجاوز الاستغرابُ المشكلات التي تعترضه؟

فرضيات البحث:

1- تتبع ضرورة تأسيس "علم" الاستغراب من دوره المأمول في إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدلاً من الكفة الراجحة لصالح الثقافة الغربية، إضافة لأهميته في تصحيح المفاهيم المغلوطة المستقرة لدى الوعي الغربي تجاه شعوب الشرق، وبالتالي مواجهة الغزو الثقافي والآثار السلبية للاستشراق والقضاء على عقدة النقص لدى شعوب الشرق أمام الغرب.

2- إن أي تقدّم ملحوظ يمكن أن يحققه "عِلم" الاستغراب لا بدّ أن ينعكس بشكل إيجابي على الحوار بين الحضارات، وبالتالي سيؤدي إلى تقليص حدَّة الصراع بين الثقافات والحضارات.

3- بالرغم من الصعوبات التي تقف حائلاً دون تأسيس "عِلم" الاستغراب بشكل كامل، إلا أن بارقة الأمل في تذليلها بدأت تلوح في الأفق -ولو من بعيد- بعد وضع اللبنة الأساس في بناء هذا "العلم" من خلال جهود بعض المفكرين والباحثين في هذا الحقل المعرفي.

4- لا يمكن تجاوز العقبات التي تعترض تأسيس "عِلم" الاستغراب والنهوض به إلّا من خلال تضافر جهود شعوب الشرق على المستويات كافة مثقفين وأنظمة ومؤسسات أكاديمية وعلمية، تعمل بداية على إغناء الهوية الحضارية والتاريخية، وتتيح إقامة حوار داخلي بين مختلف الاتجاهات الثقافية وتياراتها، إضافة لتدعيم النشاط الإبداعي وتحريره من الرقابة، وممارسة النقد الذاتي، وفتح قنوات اتصال مع المستشرقين الموضوعيين، فضلاً عن ضرورة التعاون في هذا المجال بين دول الشرق على المستوى الرسمي، وإلى ما هنالك من خطوات تعمل على تكثيف الجهود في سبيل تأسيس "عِلم" الاستغراب، واستثمار النتائج المرجوّة منه.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

1- تذليل المشكلات والظروف التي تقف عائقاً في طريق الاستغراب.

2- إيضاح ضرورة استكمال "الاستغراب" أدواتِه ومناهجَه العلمية كي يصبح علماً يحقق غاياته وأهدافه المتعددة وعلى رأسها مواجهة الآثار السلبية للاستشراق الاستعماري.

3- تحقيق حوار متكافئ متوازن بين الحضارات والثقافات، والتصدي لظاهرة صراع الحضارات.

المنهجية العلمية المتَّبعة:

تم اعتماد المنهجين التاليين:

1- المنهج التاريخي: حيث تمَّ تتبع أهم المحطات التاريخية التي مرَّت بها العلاقات بين الشرق والغرب، وكذلك المراحل والظروف التي ترعرع وتطور الاستشراق في أحضانها، إضافة للوقوف على الجذور التاريخية للدراسات الشرقية عن الغرب، وصولاً لِما يمكن تسميته نشأة "عِلم" الاستغراب.

2- المنهج الوصفي التحليلي: القائم على الملاحظة، وتحليل الضرورات والأسباب التي تدفع في طريق تأسيس "عِلم" الاستغراب، وأهمها مواجهة الخطاب الاستشراقي وصراع الحضارات، وتبيان الصعوبات والمشكلات التي تواجه تأسيس هذا "العِلم"، وتوضيح أهم طُرُق ووسائل مواجهتها وتذليلها.

أولاً: دور الاستشراق في صراع الحضارات

قبل البحث في علاقة الاستشراق ذي الوجهة العنصرية بصراع الحضارات والدور الذي يلعبه على هذا الصعيد، لا بدّ من توضيح مصطلحي الشرق والغرب، ودلالات هذين المفهومين من المنظور التاريخي، وتطورهما في ضوء تباين العلاقات بين الأمم والشعوب القديمة، كما تجدر الإشارة إلى تبيان مفهوم الاستشراق، والمرور –بشكل مختصر– على جذوره التاريخية، وأهم النظريات العنصرية الحديثة التي استند عليها الخطاب السياسي الغربي.

1– مصطلحا الشرق والغرب، وأصل التسمية:

إن كلمتي (الشَّرْق) و(الغرب) أو (المَشْرِق) و(المغرب) هي في الأصل من المصطلحات الفلكية. وبالمعنى الحقيقي للكلمة لا تدلُّ إلّا على الجهة التي تشرق منها الشمس أو تغيب، فكل رقعة من الأرض هي شرق وغرب في وقت واحد حسبما يكون موقع الشخص من هذه الرقعة.

أ– الشرق والغرب: دلالات المعنى من المنظور التاريخي:

يعود وصف قارة آسيا بأنها الشرق، وقارة أوروبا بأنها الغرب إلى زمن الحضارة اليونانية، عندما كان يُعتقَد أن الأرض مسطحة، وبالتالي ليس من مفهوم دقيق ثابت لكلمتي (الشرق) و(الغرب) بالرغم من استخدامهما منذ القِدَم؛ فأحياناً قُصِد بالشرق بعض من مناطق آسيا وإفريقيا الشمالية، وفي أوقات أخرى عدّها الأوروبيون جميع بلدان آسيا عدا (سيبيريا)، ومعظم الأحيان يُطلق على الصين واليابان اسم خاص هو (الشرق الأقصى)، كما أنّ ثمّة اختلافاً في تحديد البلاد التي يحتويها مصطلح (الشرق الأوسط) أو (الشرق الأدنى)، وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية عام 395 م إلى إمبراطوريتين غربية وشرقية ازداد الاختلاف السياسي بين الشرق والغرب، وفي العصور التالية نشأ الخلاف المذهبي بين البابوية في روما وبين البطريركية في القسطنطينية، وأدى إلى الانفصال وإلى قيام الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية). إلا أن أول مرة ظهر فيها مفهوما (الشرق) على أنه آسيا، و(الغرب) على أنه أوروبا كان خلال الحرب بين الفرس والروم عام 614 م، وبعد أن أصبحت (روما) مركز العالم أطلقت كلمة الشرق على البلاد الواقعة شرق إيطاليا (عياد، 1994، 319–320).

وإبّان قيام الدولة العربية الإسلامية أصبح مفهوم (الشرق) يُطلق بوجه عام على البلدان الإسلامية، وأثناء الحروب (الفرنجية) أضحى الدين الإسلامي رمزاً للشرق، والديانة المسيحية رمزاً للغرب.

وخلال التوسع العثماني في أوروبا، أصبح الشرق في نظر الأوروبيين مرادفاً للمملكة العثمانية، وأطلقوا مصطلح (المسألة الشرقية) على مجمل المشاكل التي نشأت نتيجة الاصطدام بين العثمانيين والأوروبيين.

وبالتالي فإن كلمتي (الشرق) و(الغرب) تدلان على مصطلح سياسي– جغرافي– تاريخي، كانعكاس عن النزاع الدائر:

– بين الفرس واليونان قديماً.

– بين المسلمين والمسيحيين في القرون الوسطى.

– بين المملكة العثمانية ودول أوروبا في العصور الحديثة والمعاصرة (عياد، 1994، 322).

وبعد انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا عام 1917، أصبح الشرق يدلّ على دول المنظومة الاشتراكية سابقاً التي تمثلها دول أوروبا الشرقية، بينما دلّ مصطلح الغرب على دول المنظومة الرأسمالية التي تمثلها الولايات المتحدة الأمريكية ودول أوروبا الغربية.

ب- مفهوما الشرق والغرب في ضوء تطور العلاقات بين الأمم والشعوب القديمة:

من الصعب إدراك المعاني التي تحملها كلمتا (الشرق) و(الغرب) إلا بتتبّع تطور العلاقات بين الدول الأوروبية من جهة، ودول آسيا وإفريقيا من جهة أخرى، فمنذ فجر التاريخ أخذت العلاقة بين الشرق والغرب أشكالاً مختلفة، بدأت بعلاقة تأثير متبادل، تحوّلت فيما بعد إلى علاقة توتر وعداء.

فقد استمدّ قدماء اليونان أسس حضارتهم من المصريين والبابليين والفينيقيين، وعدّوا أنفسهم لعصور طويلة تلامذة لهذه الأمم الشرقية التي تفوقهم ثقافة وتقدّماً، وأثناء نشوب الحروب الفارسية اليونانية (499- 449 ق.م) أخذ فلاسفة وشعراء اليونان يصفون الفرس والشعوب الخاضعة للإمبراطورية الفارسية بالهمجية ويسمونهم (برابرة)، وأصبح ذلك فيما بعد أساساً لنظرة الغرب الذي تعمّد تشويه الشرق بشكل كبير. وأثناء فتوحات الإسكندر المقدوني (335-323 ق.م) حاول التقريب بين الشرقيين والغربيين لتوطيد حكمه فانتشرت الثقافة اليونانية في آسيا وإفريقيا، ونشأت نتيجة هذا التمازج الحضارة (الهلنستية)[1]، وبعد قيام الإمبراطورية الرومانية فرض الغرب سيطرته على الشرق، ولكن سرعان ما تجدد الصراع بانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، فاحتدمت الاختلافات المذهبية والحروب بين البيزنطيين والساسانيين[2]. وعندما جاء الإسلام واستطاع العرب الوصول إلى مناطق واسعة من العالم أبدى السريان والأقباط الشرقيون رغبة كبيرة في التخلص من الاضطهاد البيزنطي الغربي، وسرعان ما أخذ الغرب منذ ذلك الوقت يصوّر الاختلاف بين الشرق والغرب كصراع بين الإسلام والمسيحية (عياد، 1994، 323).

وازداد العداء بين الشرق والغرب حدّةً ابتداء من الحملات (الفرنجية) ضد الشرق، وفي التحالف المغولي الفرنجي الذي عمل له الملك لويس التاسع، إذ وصف العالَم الغربي نفسه بأنه حامل رسالة إنسانية إلى العالم المتخلف، وتوسعت هذه الفكرة العنصرية مع بدء استعمار إفريقيا في القرن الخامس عشر، وازدادت في نهايات القرن الخامس عشر مع اكتشاف أمريكا والطرق البحرية إلى الهند عبر المحيط الهادي، ومردّ ذلك إلى أسباب عديدة كان أوضحها بروز الروح الاستعمارية (النفوري، 1959، 38).

وبعد أن حققت أوروبا تطوراً عسكرياً واقتصادياً، في أواخر القرن السابع عشر، أخذت تبحث عن أسواق لتصريف منتجاتها الصناعية والحصول على المواد الأولية اللازمة لصناعتها، وبذلك بدأ التوسع الاستعماري والاستيلاء على آسيا وإفريقيا، وتشابكت المصالح الاقتصادية مع المطامع السياسية، وبالتالي اتضحت العوامل التي أدت إلى نشوء (الاستشراق) واهتمام الغرب بهذه الدراسات.

وبدأت هذه القيادة الاستعمارية مع البرتغاليين الذين قاموا باحتلال الهند، ثم تحولت تلك القيادة إلى الهولنديين، وبعد ذلك برزت إنكلترا وفرنسا كقوتين استعماريتين واستمر التنافس بينهما خلال تلك المرحلة، وانضم إليهما كثير من دول الغرب الاستعماري، لاسيما ألمانيا الفتية.

وفي المرحلة المعاصرة نشأت (المسألة الشرقية الجديدة) لتعالج من وجهة نظر الغرب (المشكلة البلقانية) و(المشكلة العربية الإسلامية) و(مشكلة الأقليات في الشرق) (النفوري، 1959، 43)، إلى أن جاء الدور الأمريكي الاستعماري الذي برز في النصف الثاني من القرن العشرين (خاصة بعد انتصار الولايات المتحدة الأمريكية في الحرب العالمية الثانية)، ابتداءً من حربها على فيتنام عام 1965، ومن ثم احتلالها أفغانستان عام 2001 م، فالعراق عام 2003 م، مروراً بالكثير من المشكلات التي افتعلتها وخاصةً

[1] - تمثل الحضارة الهلنستية ذروة النفوذ اليوناني وأوج عظمته الفكرية والفلسفية والعلمية في العالم القديم بين 323- 146 ق.م.

[2] - الساسانيون أسرة حكمت الإمبراطورية الفارسية منذ القرن الثالث الميلادي حتى منتصف القرن السابع الميلادي.

على الساحة العربية وأهمها دعمها الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، وخلال جميع هذه المراحل لعب المستشرقون دوراً مهمّاً في التمهيد للتوسع الاستعماري وتوطيد سيطرة الغربيين في الشرق.

2- مفهوم الاستشراق، ونبذة موجزة عن جذوره التاريخية:

الاستشراق هو عِلم دراسة العالَم الشرقي، وكلمة "مستشرِق" تطلق على كل عالِم غربي يشتغل بدراسة الشرق في لغاته وآدابه وحضاراته وأديانه.

ويُرجِع بعض الباحثين الدراسات الغربية الأولى عن الشرق إلى القرن الثاني عشر الميلادي، الذي حصلت فيه ترجمة معاني القرآن لأول مرة إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر أيضاً أول قاموس لاتيني عربي (زقزوق، 1997، 18-20).

ويُرجِع آخرون تلك الدراسات إلى ما قبل ذلك بقرنين، إلا أن الاستشراق لم يتبلور ويظهر كعِلم إلا مع نهايات القرن السابع عشر، ولم يتم تداول مفهوم "مستشرق" في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، حيث ظهر أولاً في إنكلترا عام 1779، وفي فرنسا عام 1799، وتم إدراج مفهوم "الاستشراق" "**Orientalism**" في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام 1838 (رودنسون، 1978، 78).

لقد اعتنى ملوك صقلية بترجمة المؤلفات العربية في مختلف العلوم والفنون وقاموا بتدريسها في الجامعات، وفي طليطلة أسّس ريموند _رئيس أساقفتها_ بين عامي 1130-1150م المدرسة المشهورة للترجمة، التي ساعدت على نقل أهم كتب الطب والفلك والطبيعة والفلسفة من العربية إلى اللاتينية، من جهة ثانية لاحظ رجال الكنيسة الغربيون منذ الحملات "الفرنجية" أنه لا بد لهم من ترجمة القرآن والأحاديث النبوية؛ كي يتمكنوا من الرد عليها والحيلولة دون تأثيرها في نفوس شعوبهم (عياد، 1994، 324-325).

وتم تأسيس أول مدرسة أكاديمية للدراسات الشرقية في أوروبا في طليطلة عام 1250م، وقامت بتدريس اللغتين العربية والعبرية لتأهيل مبشِّرين بين المسلمين واليهود، وفي عام 1311م اقترح المبشِّر الإسباني رايموندوس لوللومس تأسيس معاهد لتدريس مختلف اللغات وإعداد مبشِّرين بالكتاب المقدَّس بين جميع الشعوب، وتكوين منظمة دينية تسعى إلى استرداد البلاد المقدسة، بعد ذلك أسّس مجمع فيينا كرسيّين لتعليم اللغات العربية والعبرية والكلدانية، في جامعات روما وبولونيا وباريس وأكسفورد وسلمنكا (عياد، 1994، 328).

وبالتالي بدأت الدراسات الغربية عن الشرق على أساس غير صحيح، لأنها خضعت لفكرة الجدل الديني.

ومنذ ذلك الحين لم يتوقف نشاط الدراسات الاستشراقية، بل أخذ منحى تصاعدياً منذ بدايات القرن السادس عشر، مع جهود المدارس الاستشراقية في مختلف دول أوروبا.

وفي القرن السابع عشر أيقنت أوروبا -مع تطور علومها- أنَّ "الشرق تمَّ تجاوزه وإحالته إلى عالم عتيق" على حدّ تعبير المستشرق رافائيل ودمان (سعيد، 1984، 88-96).

ومنذ مطلع القرن العشرين، أخذ الاستشراق يؤكد على أنَّ العرب عاجزون عن التحديث لعدم استعداد كامن فيهم، وأنَّ علاجهم هو تلقّي الاستشارة من الغرب المتطور.

لقد تابع الاستشراق دوره كأداة استعملها الغرب ضد الشرق ككل حتى بداية تسعينيات القرن العشرين، وبعد انتهاء الحرب الباردة، توجه الفكر العنصري في الغرب إلى التركيز على الإسلام تحديداً ووضعِهِ في خانة العدو الأساسي.

3- أهم "النظريات" العنصرية التي استند عليها الخطاب السياسي الغربي بعد الحرب الباردة:

مع انتهاء الحرب الباردة 1991، بدأ الغرب بصياغة خطاب سياسي يمجِّد النظام الرأسمالي، ويعمِّم النموذج الليبرالي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي في جميع دول العالم، ولتبرير ذلك صاغ عبر مفكريه نظريات ومقولات عديدة، يمكن المرور سريعاً على أهمها وهي:

أ- "نظرية" صراع الحضارات:

ظهرت نظرية (صراع الحضارات) عام 1993 للمفكر الأمريكي صاموئيل هنتنغتون الذي رأى أن الحرب الباردة الضارية المقبلة ستكون بين طرفين هما (الغرب من جهة، والحضارتان الإسلامية والكونفوشيوسية "الصينية" من جهة أخرى)، مبيناً أن أسباب الصراعات ستختلف عن المراحل السابقة لانهيار "الاتحاد السوفييتي"، حيث كانت الإيديولوجيات هي الدافع للصراع، وسوف تصبح الثقافة هي الأساس في الصراعات والحروب مستقبلاً؛ فالستار الحديدي الَّذي كان يقسم أوروبا إلى غربية وشرقية قد حلَّ مكانه ستار حضاري مشيَّد من الدين والتاريخ، وهو الصدام بين المسيحية الغربية والإسلام (هنتنغتون، 1999، 352)

لقد تناول "هنتنغتون" هذا الموضوع من منطلق "استشراقيّ" أصولي قومي يسعى إلى تأجيج الصراع والتوتر، متهماً الإسلام بالوحشية، منذ الفتوحات الإسلامية، حتى الآن.

ب_ "نظرية" نهاية التاريخ:

قام المفكر الأمريكي ذو الأصل الياباني فرانسيس فوكوياما صاحب "نظرية" (نهاية التاريخ) 1992م بتقسيم الدول إلى مستويين، دول دكتاتورية (تاريخية) ودول ديموقراطية (ما بعد التاريخ).

ويرى ضرورة تدخل الدول الديموقراطية في شؤون المجتمعات الأخرى من أجل ضبطها، باعتبارها تشكل مصدر تهديد لها، معتبراً العالَم الثالث أسيراً للتاريخ، بمقابل الغرب الذي تخطَّى الدورة التاريخية، ووصل إلى (نقطة الختام) في تطوره وإلى حالة التطابق بين المُثل والواقع بالغاً الكمال الأخير (عروس، 2002، 119).

ويؤكد على أن الليبرالية هي الشكل النهائي للحُكم البشري الذي يخلو من التناقضات، وعلى باقي دول العالم محاكاة هذا النموذج، وأن الإسلام يشكّل الخطر الأكبر الذي سيضطر الغرب إلى الدخول في صراع حتميٍّ معه، مثلما كان مضطراً إلى الدخول في صراع مع الفاشية والشيوعية.

ج- "نظرية" التوسع الديموقراطي:

لقد شدَّد المفكر الأمريكي أنطوني لايك في "نظريته" هذه على أهمية قيام الولايات المتحدة الأمريكية بنشر الليبرالية السياسية والاقتصادية في دول الكتلة الاشتراكية السابقة ودول العالم الثالث، وذلك بتكثيف استثمارات الشركات الأمريكية فيها، ويطلق لايك على الدول التي تعرقل رؤيته "بدول الارتداد" وتنتمي أغلبيتها لدول الوطن العربي ومحيطه الإسلامي، ويرى أن الحل الأمثل هو احتواؤها ومحاصرتها، وقد ركّز بشكل خاص على العراق، ودعا إلى ضرورة الاستمرار في تشديد الحصار عليه وصولاً إلى إسقاط النظام (البطوش، 2012، 91)

4- التطبيق العملي "للنظريات" السابقة بعد أحداث 11 أيلول 2001:

مع أحداث 11 أيلول 2001 دأبت الإدارة الأمريكية وعلى رأسها جورج بوش الابن على طرح أفكار وتهديدات مثل: (إن أتتنا الحملات الإرهابية الإسلامية فستشهد الشر- إنهم يكرهون قيمنا- مسؤوليتنا أمام التاريخ الردّ على الهجوم والتخلص من الشر- الحملة "الصليبية" ستأخذ وقتاً.. إنها حرب حضارات).

وكثيراً ما استخدم بوش لتبرير حروبه تعابير دينية مثل تقسيم العالم إلى (محور الخير ومحور الشر)، ومحور الشر هو كل الدول المارقة التي لا تنسجم مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية، واضعاً العالم أمام خيار: (من ليس معنا فهو ضدنا)، كما مارس الضغط على الأمم المتحدة حين هددها آنذاك بضرورة أن تأخذ دورها حيال العراق، بحجة وجود الأسلحة النووية فيها.
وأخذت الولايات المتحدة الأمريكية تبتكر طُرُقاً تمنحها مشروعية استخدام القوة في العلاقات الدولية، وهذا ما جسَّده الرئيس الأمريكي جورج بوش بعبارة: "الاستخدام الوقائي للقوة من طرف واحد، كمعادل للدفاع عن النفس، توقعاً للخطر" (بسيوني، 2003، 16).
وسيطرت على الخطاب السياسي والثقافي الأمريكي مصطلحات من قبيل (إنقاذ عالمنا)، (شن الحرب من أجل تحقيق السلام)، (ضرورة العنف لمنع استخدام أسلحة الدمار الشامل)، (الحرب الوقائية)، (المسألة التي تخص بقاء البشرية)...
ولاحقاً تحولت المعركة إلى حرب عسكرية ضد العراق عام 2005، تقودها قوات تحالف دولي تحت مضمون (ليبرالية الحرب؛ حفاظاً على الأمن والسلام ضد الدول "المارقة" التي لا يحكمها أي مبدأ أخلاقي).

5- تعقيب على "نظريات" صراع الحضارات:

يهدف صراع الحضارات إلى إلغاء ثقافات وحضارات الأمم وإقصائها لمصلحة ثقافة وحضارة واحدة هي الثقافة والحضارة الغربية، وفي ذلك إلغاء للقاعدة الأساسية للإبداع الثقافي والحضاري، ألا وهي التعدد والتنوع.
وتنطلق نظرية "صراع الحضارات" من نظرية (عنصرية) وتمييز بين الدول والأمم، وهذا يتناقض مع الشرعية الدولية وحقوق الإنسان والقيم والمبادئ التي جاءت بها الأديان السماوية وجميع المصلحين والمفكرين الذين أكدوا على قضايا العدالة والمساواة والحرية لجميع الأمم والشعوب.
لا تستند نظرية "هنتنغتون" إلى أية مرتكزات علمية أو تاريخية؛ حيث تبيِّنُ العودة إلى القرون الماضية وجود صراع داخل الحضارة الغربية ذاتها وبين دولها من أجل التوسع والسيطرة داخل أوروبا وخارجها، مثل "حروب الثلاثين عاماً، حروب لويس الرابع عشر، حروب نابليون بونابرت، الحربان العالميتان الأولى والثانية...".
إن نظرية "صراع الحضارات" ليس لها أساس حقيقي في مسارات التطور البشري؛ فحضارة أية أمة لا يمكن أن تكون بمعزل عن التفاعل الثقافي والحضاري للأمم والشعوب الأخرى، وتؤكد الحقائق التاريخية أنَّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين الحوار والتفاعل –الذَين يساعدان على إدراك القواسم المشتركة وتفهّمها بين الحضارات– وبين قابلية الإبداع الحضاري، بما يؤدي إلى التوازن وإبعاد مظاهر الهيمنة.
ثمّ أين "الديموقراطية" التي وعد بها الغربُ والكثيرُ من مفكّريه الشعبَ العراقيَّ بعد احتلاله؟!
إنّ ما يجمع بين نظريات (صراع الحضارات) و(نهاية التاريخ) و(التوسع الديموقراطي) هو النظرة إلى العالَم العربي والإسلامي على أنّه عالَم صراع، يهدِّد عالَم الغرب الذي هو عالَم السِّلم والديموقراطية. وثمّة سمة مشتركة أخرى بين تلك النظريات تنادي بضرورة توحيد الاستراتيجية الأمريكية والأوروبية لمواجهة باقي شعوب العالم، فهذه النظريات تمثل رؤية سياسية غربية للعالم بأسره تهدف إلى توظيف مصطلح العولمة بالطريقة التي تناسب تفكير الغرب ونمط حياته، متذرعة في سبيل ذلك بذرائع واتهامات مختلفة، كمحاربة الإرهاب المرتبط –حسب رأيهم– ليس بالأصولية الإسلامية فحسب، بل بالإسلام بوصفه ظاهرة.

لقد أصبحت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة هيمنة الغرب بوساطة اقتصاد عملاق، يوازيه إعلام مهيمن وموجه يحاول أن يجعل من الثقافة الغربية ثقافة كونية مطلقة، والسبب حسب ما أكد عالِم المستقبليات المغربي "المهدي المنجرة"، هو أنه: "لم تعد لدينا شرعية حقيقية دولياً، فأمريكا تقول إن دفاعها عن شعبها هو الشرعية، وتمنح نفسَها الحق في التدخل في أي مكان تريد، وفي أي وقت تريد، ولا أحد يعارضها" (المنجرة، 2007، 27).

إن الاستشراق المعاصر وما يتضمنه وينادي به في نظرياته العنصرية اتخذ شكلاً آخر، وحدد العدو بطريقة مطلقة واضحة، راسماً حدوده حول الإسلام بشكل كامل، وإذ يقوم "هنتنغتون" بتجريم الإسلام وتحميله مسؤولية الصدامات والحروب، فإنه في الوقت ذاته يتعامى عن سلسلة الحروب التي شهدتها المنطقة ذاتها منذ فجر التاريخ، ابتداءً من حروب الإسكندر المقدوني والبيزنطيين، فالحروب "الفرنجية"، ثم الحروب الاستعمارية في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، الأمر الذي يؤكده أحد المستشرقين الموضوعيين وهو الفرنسي بول فيبل بقوله: "العرب بالنسبة لنا هم (الآخر) طوال تاريخنا، لقد كان لدينا نحن –الفرنسيين– العديد من هذا (الآخر) (كالألمان والإنكليز) في بعض الفترات... لكن العرب أكثر من غيرهم... الغرب استعمر البلدان العربية والشرقية وارتكب بحقها الكثير من الفظائع... قام الألمان في بعض الفترات بخلق النازية لكنهم اعترفوا بمسؤوليتهم وقالوا كنا نازيين، بينما نحن في الوقت الراهن لم نعترف بهذه المسؤولية إزاء (الآخرين)، ونخفي عدم اعترافنا تحت قناع العنصرية السائد هذه الأيام، نحن مذنبون في الغرب لأننا لم نعترف بعد بمسؤوليتنا ولأننا لم نكتشف بعد حلاً لتلك العلاقة غير المتوازنة بين مركز العالم وأطرافه..." (الشيخ،، 1999، 153).

ثانياً: دور الاستغراب في مواجهة الخطاب الاستشراقي وصراع الحضارات.

في معرض إيضاح الدور المأمول من "عِلم" الاستغراب، وضرورات تأسيسه، لا بد أولاً من تبيان المقصود من مفهوم الاستغراب، واستعراض بعض المراحل التاريخية التي مرّ بها ولو بشيء من الإيجاز، ومن ثمّ الوقوف على العقبات التي تواجه تأسيس هذا "العِلم"، وتقديم بعض المقترحات لتذليل تلك العوائق.

1– مفهوم الاستغراب، وموجز عن أهم المحطات التاريخية التي مرّ بها:

الاستغراب مصدر من باب الاستفعال بمعنى طلب الشيء، وإرادة التعرف عليه (ابن منظور، 1970، 967).

والمقصود منه بالمعنى الاصطلاحي: طلب الغرب بغية التعرُّف عليه.

بالتالي يكون الاستغراب هو "عِلم" دراسة الغرب، و"المستغرِب" هو الذي تبحَّر –من أهل الشرق– في إحدى لغات وآداب وعلوم وفنون واقتصاد وتاريخ وفلسفات وعادات وثقافات وحضارات الغرب (سمايلوفيتش، 1998، 37).

إنَّ تتبُّع دراسات "الاستغراب" وإن اختلفت مسمَّياته عبر مراحله المختلفة، يُظهِر أن طَرْق هذا التوجه ليس بالجديد؛ بل أنّ له جذوراً قديمة جداً تجسّدت بالدراسات الشرقية لأحوال الغرب الثقافية والاقتصادية والعمرانية والدينية...

لقد نشأت هذه الدراسات مع تكوُّن الـ "أنا" الحضارية المتمثلة بالحضارات القديمة في الشرق (مصر والمغرب العربي وكنعان وآشور وبابل، وفارس والهند والصين، ومن ثم التراث الإسلامي).

وبعد عصر الترجمة كانت المحطة الثانية، فصارت الحضارة الإسلامية –خاصة في عهد الدولة العباسية أثناء خلافة "المأمون"– ذاتاً دارساً، حوّلت الحضارة اليونانية إلى موضوع دراسة، فاتَّضح الجدل بين الأنا والآخر بشكل جَلِيّ (الأنا ذات دارس، والآخر موضوع مدروس).

وأثناء حروب "الفرنجة" ظهرت مرحلة ثالثة من "عِلم" الاستغراب الذي اتضح بصورة "الآخر" (الغازي) المتمثلة بـ (التعصب، الغزو، الفتن...) في وعي "الأنا" (المدافع).

وبعد ذلك ترافقت المرحلة الرابعة مع الوعي الإسلامي في أواخر القرن السابع الهجري، حين أرَّخ ابن رشد للفلسفة الإسلامية والفلسفة اليونانية، وعندما تحدث ابن خلدون في "مقدمته" عن الفرنجة (بلادهم، تاريخهم، عمرانهم...)، وكان الوعي الإسلامي آنذاك يقوم بدور الأستاذ، في حين قام الوعي الأوروبي بدور التلميذ.

أمّا المرحلة الخامسة فقد بدأت أواخر القرن الثامن عشر مع الحملة الفرنسية 1798، وبدايات القرن التاسع عشر مع حملة فريزر 1807، واتضحت صورتها في علماء الأزهر مثل الشيخ حسن العطار، وفي فكر رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وطه حسين وأحمد أمين وأحمد لطفي السيد، وبدأ الجدل بين الأنا والآخر (بين التخلف والتقدم، بين الجهل والعلم، بين علوم الغايات وعلوم الوسائل...).

وأتت المرحلة السادسة أواسط القرن العشرين إبّان التحرر من الاحتلال الأوروبي، واتسمت بالانفتاح الثقافي مع الغرب العلمي والانبهار به وبالتالي فقدان التوازن، ونشطت خلالها حركات الإصلاح والدعوة إلى الأخذ بأساليب النهضة الحديثة على غرار الغرب، والمناداة بتأسيس الدولة الحديثة، وبدأت البعثات العلمية إلى الغرب، وحركة الترجمة عن الغرب منذ إنشاء "مدرسة الألسن"، وكل ذلك كان مجرد نقل دون إبداع (حنفي، 1991، 58).

وهكذا، لم تخضع الدراسات "الاستغرابية" منذ البدء لفكرة الجدل الديني، على العكس من الدراسات "الاستشراقية".

ومع آخر عقدين من القرن العشرين بدأت إرهاصات "عِلم" الاستغراب بشكله الراهن مع جهود أنور عبد الملك، وحسن حنفي الذي ألّف كتابه بصفحاته التي تجاوزت الثمانمئة تحت عنوان "مقدمة في عِلم الاستغراب" عام 1991، وقد كانت محاولته تلك هي الأولى من نوعها في الخوض بهذا الميدان، بعد أن كانت محاولات الآخرين تقتصر على بعض المقالات الصحفية هنا وهناك.

إلا أنه للأسف بعد أكثر من ثلاثة عقود من تلك الإرهاصات والمحاولات المهمة، لم يتم تسجيل أية قفزات نوعية في هذا المضمار، بل ظل يراوح مكانه، في ظل المزيد من القلق والضياع الذي تتعرض له بلدان الشرق، نتيجة الحروب والإرهاب والتمييز العنصري الذي يطال شعوبها وبلدانها، وبسبب ازدياد فجوة عدم التكافؤ بين دول الشرق ودول الغرب على الصعد العلمية والتقنية والفكرية كافة.

2- ضرورات التأسيس لـ "عِلم" الاستغراب في ظل مخاطر الاستشراق:

إذا اتفقنا على أن الاستشراق المسيَّس قد جاء لتحقيق غايات محددة، أهمها الأهداف الاستعمارية، حاملاً فكرة العنصرية والصراع بين الحضارات، وقد نجح على مدى قرون من تحقيق غاياته، فما هي الغاية من "الاستغراب" كمعادل موضوعي لـ "الاستشراق"، خاصة أن عقيدة المسلمين تقف ضد التمييز العنصري، وتطالب بالعدل حتى مع أولئك "الذين بيننا وبينهم عداوة"؟ وما هي طبيعة المواجهة المنشودة مع هذه الممارسات العدوانية؟

بكل تأكيد ليس الهدف من "عِلم الاستغراب" هو معاداة الغرب، أو النقمة عليه، أو الانتقام منه، أو تشويهه، أو السعي لأن يكون مضاداً له، أو ردَّة فعل عليه، وفي ذات الوقت ليست الغاية مجرد الوقوف عند مستوى النقد، إنما الهدف هو السعي لفهم أعمق للغرب في مختلف جوانبه الإيجابية والسلبية، من خلال دراسته دراسة موضوعية متأنية بما يحقق النفع لشعوب الشرق أولاً، ويعود نفعه على الطرف المدروس ثانياً.

وتختلف دوافع تأسيس "عِلم" الاستغراب من تيار إلى آخر:

فالإسلامي يرى ضرورة نقد الغرب من خلال الاعتماد على الأسس الدينية المأخوذة من القرآن والسنة وتراثه العقائدي.
أما القومي فينطلق من هدف الدفاع عن أمته والحفاظ على هويتها.
بينما يشكّل الدفاع عن حقوق العمال ومكافحة الإمبريالية منطلَقاً لليساري.
في حين يرى التيار العلمي العلماني أن الغرب نمط للتحديث على مدى قرنين من الزمن.
ويرى الباحث ضرورة تجاوز كل هذه التصنيفات والدوافع، وبالتالي توسيع الإطار خارج هذه التقسيمات والتوصيفات الدينية والقومية والإيديولوجية الضيقة، ليأخذ شكلاً يحتوي تلك المستويات والغايات جميعاً ويهدف إلى تحقيق منفعة دول وشعوب الشرق بأكملها، لكون الخطر المنبثق من عنصرية الغرب ونظرياته القائمة على صراع الحضارات يهدد جميع تلك العناوين دون استثناء.

ويمكن إجمال ضرورات التأسيس لـ "عِلم" الاستغراب في نقاط عدة أهمها:

أ- تحرير شعوب الشرق من الخضوع للغرب ومفاهيمه المفروضة، وحلّ عقدة النقص التاريخية في علاقة "الأنا" بـ "الآخر"، وتحويل هذه الشعوب من مستهلكة للثقافة والعِلم الغربي إلى مبدعة خلّاقة، وكذلك تحطيم مركّب العظمة لدى "الغرب" بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس.
وإنهاء أسطورة أن الغرب ممثّل للإنسانية جمعاء، وأن أوروبا تشكّل مركز الثقل فيه (العسل، 2013).
إضافة لدراسة الوعي الأوروبي على أنه ليس فوق التاريخ، وليس المسار الحضاري الأوحد، وبالتالي اكتشاف خصوصيات الشعوب، ونمطها الحضاري الخاص (حنفي، 1991، 50- 52).
ب- معرفة الذات، ومن ثم التعرف على الحضارات الأخرى، والإفادة من النتاج المعرفي للبشرية، وتحوّل رفض "الاستشراق" من مستوى العِداء الساذج والانفعال المجاني إلى مستوى العلم الدقيق المتسم بالموضوعية والحياد.
إضافة لتقويم مغالطات عِلم الاستشراق وتصحيح أحكام المستشرقين على حضارات الشرق، عسى يجد المستشرقون أنهم ليسوا الوحيدين على الساحة الذين يدرسون الشعوب وثقافاتها ونتاجها الفكري...، وهذا يستدعي التعرّف على المناهج والسياسات التي اعتمدها الغرب في السيطرة على الشرق، كي يتم تجاوز نقاط الضعف (حنفي، 1991، 55)، وكذلك التعرف على نقاط القوّة والضعف لدى الغرب والمخططات التي يرسمها والآليات والوسائل التي يستخدمها، وهذا يتطلب أولاً معرفة نقاط ضعف دول الشرق، وإيجاد الحلول الناجعة لها، مما يساعد على مقاومة استلاب الهوية ومواجهة التغريب الذي يعني (طلب الغرب والافتتان به والميل إليه والتعلُّق بثقافته والانصهار بحضارته، وصبغ الحياة بأكملها بالأسلوب الغربي، وبالتالي الانفصال عن التاريخ واللغة والثقافة والهوية الخاصة بشعوب الشرق)، هذه المواجهة التي تفضي إلى التخلص من الاختراق الثقافي، وصولاً إلى الخلق والإبداع.
ج- فهم التاريخ بشكل دقيق وإعادة كتابته بما يساعد على اكتشاف دور الحضارات والظروف التي أنتجت حضارة الغرب، وبالتالي بداية رسم فلسفة جديدة للتاريخ، يتضح معها ويتأكد دور الشعوب الشرقية كصنّاع للتاريخ والحضارات، وقد يكون لتأسيس هذا "العلم" بالترافق مع عوامل مساعدة أخرى دور كبير في تحوّل تاريخ العالم بشكل جذري، وبداية عصر مختلف يتلاشى فيه داء العنصرية، والصراع بين الحضارات، ويتجسَّد فيه الحوار المتوازن بين الثقافات على أساس التكافؤ والتكامل بينها.

كما أنه بالدعوة إلى الحوار بين الحضارات، قد يسهم مفكرو بلدان الشرق في تخليص الجانب المضيء من الحضارة الإنسانية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية من أيدي مجرميه الساعين من خلال إشعال الحروب والصراعات بين أمم الأرض إلى تدمير ما هو جميل في قيمها (المقالح، 2002، 2).

3- العقبات التي تواجه تأسيس "عِلم" الاستغراب.

مما لا شك فيه أن ثمّة تحديات وصعوبات تعترض أي عِلم في طور تأسيسه، وتجدر الإشارة إلى بعض من تلك العثرات والمشاكل التي تواجه "عِلم" الاستغراب والتي يمكن إجمالها في نقاط عديدة أهمها:

أ- إن غياب الوعي بالتاريخ لدى معظم الباحثين الشرقيين، وعدم البحث عن أسباب هذا الغياب ومعرفة مقومات الحضور يشكّل مشكلة كبيرة تعترض طريق "عِلم" الاستغراب (حنفي، 1991، 42).

فعلى العكس من الغرب، ما يزال عدم إدراك الذات، واللبس في فهم هوية الشعوب الشرقية لدى أهل العلم في الشرق، ناهيك عن فقدان الهمّ العلمي بالنسبة لهذه الشعوب يعيق بشكل كبير تأسيس هذا "العِلم" (كتوشيان نيان، 2016، 231).

ب- ليس هناك من نمط واضح حتى الآن لما يمكن تسميته "عِلم الاستغراب"، إذ ثمّة افتقار إلى أبحاث علمية منظمة عن الغرب في مقابل عِلم الاستشراق (النملة، 2014)، فمعظمها ما يزال مقتصراً على الوصف دون الغوص في عمق التحليل والنقد، مما يجعل "المستغرب" مجرد ناقل لا غير.

وأغلب الدراسات التي صدرت في هذا المجال على مدى عقود، لم تكن إلا تكراراً للنظريات الغربية في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية.

ج- تختلف الظروف والمعطيات التي تحيط بالاستغراب عن الظروف التي مر بها الاستشراق منذ نشأته حتى الآن، فقد تطوّر الاستشراق إبّان المدّ الاستعماري الأوروبي، والشعوب الأوروبية ما تزال حتى اليوم منتصرة منذ سقوط غرناطة والكشوفات الجغرافية، على عكس الاستغراب الذي يعاني من كون معظم شعوب العالم الشرقي مهزومة منذ قرون. وبالتالي فإن ماهية الاستغراب دفاعية في مقابل ماهية الاستشراق الهجومية.

د- وُلِد الاستشراق وترعرع في كنف مناهج البحث العلمي مثل (الوضعية- التاريخية- العلمية...)، بينما تتم محاولة ولادة الاستغراب اليوم من رحم مناهج مختلفة كمناهج اللغة وتحليل التجارب العامة...، وقد وصل الاستشراق اليوم إلى مرحلة ورثته العلوم الإنسانية خاصة الانثروبولوجيا الحضارية وعلم اجتماع الثقافة، في حين لم يخطُ الاستغراب أولى خطواته الجديّة بعدُ (حنفي، 1991، 30).

كما بقيت مواقف المنادين بتأسيس "عِلم" الاستغراب في معظمها محصورة في إطار المواضيع القِيَميَّة، بدلاً من أن ترتكز على علوم المعرفة والمنهج (كتوشيان نيان، 2016، 231)؛ إذ إن ثمّة انقساماً حادّاً بين مواقف النخب في دول الشرق إزاء الغرب، فمنهم من دعا إلى العودة إلى الأصالة ورفض الآخر جملة وتفصيلاً، وآخرون طالبوا بالتغرّب والارتماء بحضن الغرب بشكل كلّي، وهذا الانقسام عاطفي أكثر من كونه فكرياً أو علمياً.

4- بعض المقترحات لتذليل عوائق تأسيس "عِلم الاستغراب":

لا يمكن النهوض بدراسات "الاستغراب" إلى مستوى "عِلم" يستطيع مواجهة صراع الحضارات، والقيام بدور فاعل في الحوار الحضاري إلا من خلال المباشرة بادئ ذي بدء بما يلي:

أ- إغناء الهوية الحضارية والتاريخية:

من الضروري بالنسبة لمثقفي وشعوب العالم الشرقي تجنُّب الرفض الانفعالي، أو القبول المجاني لأية ثقافة وافدة من الغرب، فمن خلال المصالحة بين دعوتي "الحداثة، والتراث" -بالشكل الذي يحقق إنجازات اجتماعية وفكرية وعلمية وتكنولوجية- تصبح الهوية مركّبة مرنة قادرة على إشباع حاجات المجتمع الثقافية والجمالية والروحية والمادية.

ولدى الأمة الإسلامية- كما لمختلف بلدان وحضارات الشرق- الكثير مما يمكن استثماره؛ فالبعض من التوفيقيين مَن يقرأ قيم الحداثة الأوروبية في التراث الإسلامي، فيرى الديموقراطية في الشورى، والعقلانية في دعوة القرآن إلى إعمال العقل، كما يقرأ الحرية والمساواة وحقوق الإنسان في النصوص الدينية...، ويرى أن الإصلاح الديني الذي حصل في أوروبا قد تأثر بالإسلام الَّذي جعل العلاقة بين الإنسان والخالق دون وساطة، أيضاً فإن العلوم الطبيعية الحديثة في الغرب قد أخذت من علماء العرب كابن الهيثم، وكذلك الطب الَّذي اعتمد حتى القرن السابع عشر على الطب العربي وخاصةً ابن سينا، أما بالنسبة للفلسفة فقد احتضنت الفلسفة الأوروبية الحديثة فلسفة ابن رشد وطروحاته... (الجابري، 1996، 133-134).

ب- استخدام مناهج البحث العلمية:

لا ضير في استخدام المناهج البحثية ذاتها التي اعتمدها الغرب، كالمنهج الوصفي أو التاريخي أو المنهج التحليلي أو المنهج العقلاني أو الوضعي أو الاستقرائي أو المقارن أو دراسة الحالة، خاصة أن لبعض هذه المنهجيات أصولاً إسلامية أو هندية أو صينية (حنفي، 2009، 20).

فضلاً عن أهمية الاعتماد على المصادر الرئيسة الغربية بلغاتها الأصلية، وعدم الاقتصار على الترجمة والنقل بل ضرورة الإضافة عليه والتأثير المتبادل بحسب الحاجة والمصلحة ودون التقليد الأعمى، مع ضرورة التزام الموضوعية والحياد العلمي، والحذر من تحوّل هذا "العِلم" إلى إيديولوجيا ومصادرة الآخر.

ج- النقد الموضوعي للنتاج الاستشراقي:

من المهم للغاية -قبل نقد نتاج المستشرقين- أن يمارس مفكرو الشرق باستمرار نقداً ذاتياً حقيقياً، من خلال مواجهة جدية للعيوب والتقصير الذي يعتري بلدانهم.

وبعد ذلك تأتي أهمية دراسة النتاج الاستشراقي بتمعّنٍ وعمق، ونقده نقداً صحيحاً بعيداً عن النزعات الهجومية، مدعّماً بالحقائق والبراهين العلمية والتاريخية، بما يسهم في فضح الكثير من زيفه وتضليله، ويجعل الكثير من المستشرقين يفكرون مليّاً قبل أن يكتبوا، هذا ما أوضحه المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" بقوله: "قد يكون النقد الأوروبي غير عادل في نقاط معينة، ولكن القيام بتفنيد هذا النقد يقتضي بدوره دراسته أولاً، إذ لا يمكن نقده إلا على الأساس ذاته الذي قام عليه" (زقزوق، 1997، 131).

ويرى المستشرق الفرنسي بيير تييه، أنه من الضروري أن يكون هناك "استغراب" في الشرق، يهدف إلى معرفة الغرب وإدراكه بشكل أفضل، وإعطاء الشرقيين قدرة على الحفاظ على أصالتهم واختلافهم وإنقاذ هويتهم ودخولهم التاريخ (الشيخ، 1999، 188).

د- الدور المفروض على أنظمة الشرق السياسية:

من المهم للغاية أن تنطلق الأنظمة السياسية في دول الشرق من الداخل، وتقيم حواراً داخلياً بين مختلف الاتجاهات الثقافية وتياراتها، إلى جانب تدعيم النشاط الإبداعي، وتحريره من الرقابة والمحرَّمات.

إضافة لضرورة إنهاء المشاكل البينيّة بين بعض دول الشرق المتجاورة، ناهيك عن أهمية تفعيل علاقات التعاون إلى أعلى درجة بينها، خاصة بين الدول العربية، بشتى المجالات الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية...

فضلاً عن أهمية إقامة علاقات تعاون ثقافية وسياسية وغيرها مع دول أمريكا اللاتينية القريبة جغرافياً من بعض الدول الإمبريالية والمناهضة لها، وتوطيد تلك العلاقات بالشكل الذي يكون حاضراً على الساحة الثقافية والأدبية والإعلامية، بما يشكل عاملاً ضاغطاً على دول الغرب ومفكريه ذوي التوجه العنصري، ويوسّع دائرة التفهّم في غير مكان للقضايا العادلة لشعوب الشرق، ويرسّخ الصورة الحقيقة لحضاراتهم في ذهنية شعوب الغرب، مما يضيّق الخناق على مثقّفي الغرب ومستشرقيه، ويدفعهم للتريّث قبل إبداء أي رأي يعتريه التزييف ويشوبه التضليل.

هـ- إنشاء مؤسسات عالمية للبحوث الإسلامية، وفتح قنوات اتصال مع المستشرقين الموضوعيين:

من الضروري إقامة مؤسسات عالمية للبحوث الإسلامية، لا تنتمي بالولاء لمذهب ديني أو سياسي معين، تنشر بحوثها بلغات مختلفة من خلال دوريات علمية لها ذات مستوى رفيع، وتُعنى بدراسة الغرب ونقد ما لديه من أخطاء وعنصرية، بما يمكّنها من مواجهة جميع التيارات المعادية للمسلمين.

ومن الواجب أيضاً أن تسعى المؤسسات العلمية الإسلامية إلى تجديد الخطاب الديني بما يتماشى مع مفاهيم ومتطلبات العصر، وإجراء حوار مستمر مع المستشرقين المنصفين وعقد ندوات معهم، بهدف دعمهم وتشجيع اتجاهاتهم لتصحيح الصورة الخاطئة عن الإسلام والمسلمين.

ومن المفيد جداً إنشاء دار نشر إسلامية عالمية تُعنى بنشر المطبوعات الإسلامية باللغات كافة؛ كيلا تبقى المطبوعات الإسلامية باللغات الأجنبية تحت رحمة الناشر في الغرب، وأوضح مثال على ذلك ما وجده المفكر الفرنسي روجيه غارودي من صعوبة كبيرة أثناء نشر كتابه (ملف "إسرائيل" بين أحلام وأكاذيب الصهيونية) (زقزوق، 1997، 159).

كما يمكن الاستفادة من خبرات الشخصيات الغربية المؤثرة التي اعتنقت الإسلام، ومنها على سبيل المثال المفكر الفرنسي غارودي، الذي يرى ضرورة الحضور المستمر في وسائل الإعلام الغربية، ونشر الكتب المبسّطة التي تكون في متناول الجميع، وتنظيم المعارض والمهرجانات وغيرها، مما يسهم في انتشار ثقافة الإسلام الحقيقية، ويقدّم غارودي اقتراحاً مهماً مفاده تحويل الجمعية الإسلامية بجنيف إلى مركز للإشعاع الديني والثقافي، وإقامة مركز إسلامي في المنطقة الباريسية (زقزوق، 1997، 139- 152).

ومن المهم كذلك تقوية الحضور الإسلامي في المؤسسات الأكاديمية الغربية، عن طريق الاتفاقيات الثقافية التي تعقدها البلدان الإسلامية مع دول أوروبا وأمريكا، من خلال إرسال أساتذة أكْفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها، ليتسنى لهم بالتدريج تصحيح التصورات الغربية عن الإسلام، ناهيك عن ضرورة إنشاء معاهد ومراكز بحوث إسلامية في الغرب على غرار المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت (زقزوق، 1997، 158).

و- دور المؤسسات الأكاديمية والعلمية:

ثمة ضرورة كبيرة لإنشاء مراكز بحوث علمية في دول الشرق وخاصة في بلدان الوطن العربي، لدراسة الغرب والاستفادة من هذه الدراسات، إضافة لإنشاء تخصص جامعي -ولو جزئي- يتناول قضية الاستغراب، وكذلك الربط في هذا الإطار بين الدراسات الأكاديمية لفروع العلوم السياسية والتاريخ وعلم الاجتماع والآثار... في الجامعات والتعاون مع بعضها (ضمن الدولة الواحدة وبين

دول الشرق كافة)، خاصة أن الفروع المتخصصة في الجامعات العربية تكاد تخلو من هذه الدراسات؛ فلا مقررات أو أبحاثاً علمية محكَّمة أو أطروحات ماجستير ودكتوراه تتناول هذا الحقل المعرفي، إلّا النذر اليسير، وبشكل سطحي.

الخاتمة:

بعد تبيان الدور السلبي الذي لعبه ويلعبه "الاستشراق" ذو التوجُّه الاستعماري، وسعيه إلى تأجيج الصراع بين الأمم والحضارات، وبعد عرض المراحل التي مرَّت بها دراسات "الاستغراب"، وتحديد أهدافه والصعوبات التي يعاني منها، اتضح مدى ضرورة تكثيف الجهود لتأسيس "عِلم الاستغراب"؛ لِما له من أهمية بالغة تلقي بظلالها على الحوار بين الحضارات، لتكريس السلام والتعايش بين الدول والأنظمة المختلفة، وهو بذلك يستطيع الوقوف في وجه الخطاب الاستشراقي العنصري، ويكون قادراً على مواجهة فكرة صراع الحضارات التي تُجسِّد في طياتها وجوهرها منطق الحرب والعدوان.

إلا أن الاستغراب للأسف مازال يحبو ببطء شديد، ولم يمتلك بعدُ الأدوات والمناهج العلمية التي يستطيع من خلالها أن يرقى لمرتبة عِلم، له أسسه وطرائقه البحثية وثقله الذي يمكِّنه من السير في طريق تحقيق غاياته، ناهيك عن الصعوبات التي لم تزل تعترضه، ولم يتم التمكن من إزالة وتذليل أية عقبة منها.

في الختام، لا بدّ من الاعتراف بأن المسؤولية حيال هذا المضمار كبيرة جداً والطريق مسيّج بالمصاعب المتنوعة، ولم يزل هذا الكائن المسمّى بـ "عِلم الاستغراب" في مرحلة ما قبل المخاض، وولادته المحتملة قد تكون عسيرة جداً، غير أن المهمة ليست بالمستحيلة، وهي تستحق المكابدة والعناء لكونها من أهم وسائل مواجهة الأخطار والتحديات التي تعصف بمجتمعات الشرق، سواء من الداخل أو الخارج الغربي، ودائماً لا يبدأ الانتصار الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ولا يكتمل إلا من خلال الانتصار الثقافي، وهذا ما يهدف له "عِلم" الاستغراب.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع:

1- ابن منظور، (1970)، لسان العرب، دار لسان العرب، بيروت.

2- بسيوني، شريف، (2003)، الحرب الأمريكية في العراق- مشروعية استخدام القوة، مجلة السياسة الدولية، العدد 151، القاهرة.

3- البطوش، معاذ، (2012)، تداعيات الاحتلال الأمريكي البريطاني على العراق وأثره على الأمن القومي العربي، دار الحامد، عمَّان.

4- الجابري، محمد عابد، (1996)، المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

5- حنفي، حسن، (1991)، مقدمة في عِلم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة.

6- حنفي، حسن، (2009)، ماذا يعني الاستغراب؟، مركز الدراسات المعرفية، القاهرة.

7- رودنسون، مكسيم، (1978)، تراث الإسلام، ج1، ترجمة محمد زهير السمهوري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.

8- زقزوق، محمود حمدي، (1997)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، دار المعارف، القاهرة.

9- سعيد، إدوارد، (1984)، الاستشراق، ط2، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

10- سمايلوفيتش، أحمد، (1998)، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة.

11- الشيخ، أحمد، (1999)، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، ط1، المركز العربي للدراسات الغربية، القاهرة.

12- عروس، سهيل، (2002)، مأزق الليبرالية -نهاية التاريخ نموذجاً-، مجلة الفكر السياسي، العدد 15، السنة 5، بيروت.

13- العسل، ضياء الدين نبيل محمد، (2013)، ورقة بحثية بعنوان الاستشراق والاستغراب، كلية الإعلام، قسم الإذاعة والتلفزيون،11 نوفمبر 2013، جامعة اليرموك، الأردن.

14- عياد، كامل، (1994)، مقالات مختارة- القسم الثاني، وزارة الثقافة، دمشق.

15- كتوشيان نيان، حسين، (2016)، معرفة الحداثة والاستغراب، ترجمة مسعود فكري ومحمد فراس الحلباوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت.

16- المقالح، محمد، (2002)، الحوار النقدي الداخلي ثم الحوار مع الجوار الحضاري، مؤتمر "كيف نواصل مشروع حوار الحضارات؟"، دمشق.

17- المنجرة، المهدي، (2007)، الإهانة في عهد الميغا إمبريالية، ط5، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.

18- النفوري، أمين، (1959)، إستراتيجية الحرب ضد "إسرائيل" والعمل العربي الموحد، المكتبة الميدانية، دمشق.

19- هنتنغتون، صاموئيل، (1999)، صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، ط2، ترجمة طلعت الشايب، دار سطور، القاهرة.

20- النملة، علي، (2014)، الاستغراب ظاهرة معاصرة تقابل الاستشراق، صحيفة الحياة السعودية على الإنترنت، 2 نوفمبر 2014، الموقع الإلكتروني **nada@alhayat.com**.